نقد وتحليل

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

النيل
حياة نهر عظيم

لمؤلفه اميل لدفج

يحتوى الكتاب الذى جمع فيه « اميل لدفج » أحاديث « مازاريك » زعيم « شيكوسلوفاكيا » وفيلسوفها الكبير فصلا ممتعاً بعنوان : « لماذا الجهاد فى سبيل الحق ؟ » يسأل فيه الكاتب محدثه عن سر تلك الغيرة على الحق التى لقى من جرائها ما لقى فى عنفوان صباه

من يقرأ ذلك الفصل يشعر بالحالة النفسية الجديدة التى انتقل اليها « اميل لدفج » ويصح أن تسمى حالة السكينة وقلة الاكتراث لشىء من الأشياء

فبعد ان كان الدفاع عن الحق فى هذه الدنيا هو الشىء الطبيعى المعقول الذى يعمله جميع الناس بالفطرة والبداهة ، أصبح هو غريبة الغرائب ، وأعجوبة الطبائع الانسانية ، ولغز الحياة الذي يحتاج الى السؤال والتفسير

وقلة «الحماسة» تعين الكاتب على شيئين ، وان أفقدته غير ذلك من الأخلاق والملكات : تعينه على الانصاف وصحة الحكم كما ينصف الحاكم بين خصمين لا يضمر الهوى لأحد منهما أو لكليهما ، ولا يرعى فيهما غير النظر الى موضوع الخصومة دون النظر الى الخصمين

وتعينه على الفكاهة والسخرية ، لان الفكاهة كثيراً ما تأتى من طريق التفرقة بين الظواهر والبواطن والدعاوى والحقائق ، كما تأتى كثيراً من طريق النظر الى الأمور بغير

اكتراث ولا حماسة أو اهتمام . فالرجل الذى لا تأخذه الدعاوى بظواهرها ، ولا يندفع مع الأهواء بغوايتها يضحك من هياج النفوس ، كما يضحك الرجل الرصين من هياج الطفل فى غير طائل ، وهو نافذ ببصره الى ما وراء ذلك الهياج من قلة العناء أو من قلة الغناء

ولا يخطىء القارىء أن يرى هاتين الخصلتين على أجلاهما وأوفاهما فى كتاب « النيل » ، وهو أول كتاب أظهره اميل لدفج بعد نشر أحاديثه مع مازاريك .

ففى الكتاب من أوله الى آخره نزعة من السخرية الفولتيرية لا تشذ عنها وجهة من الوجهات، ولا تقف دون قداسة من القداسات ، و يتفق فيها هو وفولتير فى بعض الاحايين اتفاقاً حرفياً لا نظنه من قبيل الاستعارة والاقتباس . كما حدث فى التماسهما المعذرة للهمج من آكلى لحوم البشر بالقياس الى آداب المتحضرين المتمدنين

فالساخر الاعظم فولتير يقول فى كتابه « كنديد » أثناء وصفه للرحلة فى امريكا الجنوبية بلسان بعض ابطاله وهو يخاطب أبناء القبيلة الهمجية :

« أيها السادة ! .. انكم تحسبون انكم ستنعمون اليوم بلحم أحد الكهان وهو صحفة شهية بلا مراء ، وانى لا أجادلكم ولا أرى شيئاً أدنى الى العدل والانصاف من التصرف مع أعداء الانسان على هذا المنوال ، اذ الواقع ان قانون الطبيعة يعلمنا أن نقتل اخواننا على المبدأ الذى يعمل به العاملون فى جميع أنحاء الكرة الارضية . فان كنا لا نطبق عندنا مبدأ أكلهم فذاك لأننا فى غير حاجة الى هذا الصنف لكثرة ما عندنا من صنوف الطعام ، أما وأنتم لا تظفرون بمثل هذه المزية ، فلا ريب انه من الخير لكم أن تأكلوا أعداءكم بدلا من القائكم بثمار النصر والغلب للحدأ والغربان »

واميل لدفج يذكر عادات الهمج آكلى لحوم البشر فى افريقا ، ويذكر عنهم انهم يتحرجون من أكل لحوم الانعام ، لانهم يعتقدون ان أرواحهم تدخل فى بعضها أثناء الحياة وبعد الممات ، فاذا اكلوا البقرة فقد يأكلون أنفسهم ، واذا اكلوا الانسان فلا خوف من هذا العدوان ! .. ثم يقول :

« ولعمرى لم نفردهم بتهمة القسوة وهم يظهرون فى آدابهم ما يظهرون من تلك اللباقة والكرامة ؟ أليس أكل الانسان عدوه أقرب الى الطبع من أكله خنزيراً أو طائراً يتولى اطعامه وتدليله سنوات ؟ أليس هذا أو ما يشبهه هو أمنية الامانى عند التقاة الذين لا يمنعهم مانع غير العادة أن يأكلوا أعداءهم الذين يسرون بتعذيبهم ذلك السرور »

ومن الاتفاقات الطريفة ان فولتير يحكي في قصته الخيالية عن أناس في امريكا الجنوبية لا يصلون ، لأن الله قد أغناهم عن التوسل والدعاء ، وان اميل لدفج يحكي في قصته الواقعية عن أناس من الهمج يعتقدون ان الاله موجود ، ولكنه أكبر وأرفع من أن يصغى الى صغائر الانسان !

والكتاب يفيض بالسحر في كثير من المواضع : يصف القردة في بلاد الحبشة ، وهي دون الحيوانات جميعاً ، تترك ماء الغدران وتلتفت الى آنيــة الخمر فتكرع منها حتى تقع في أيدي القانصين وقد نجا سائر الحيوان ، فيقول انها كانت أخلق أن تسلم بذكائها مما يتردى فيــه الحيوان المشهور بالغباء ، ثم يقول : «وهل كان القرد عبثاً نصف انسان ؟ »

ويصف الرخم وهو ينقض على الجيف في مجاهل الصحراء من حيث لا يتوقعه الناظرون فيقول : «سرعان ما يموت الميت حتى تراهم هناك : أسرع من الورثة ! »

ويقول عن عادات الهمج والمتحضرين في الزواج ، وقد روى ثورة الهمج على القسوس لانهم يأبون عليهم أن يتزوجوا بغير واحدة : « انهم ــ أي الهمج ــ لايعلمون ان الرجل في اوربا يتزوج واحدة ويستطيع أن يأخذ قرينة جاره بغير عقاب ! أما الرجل الهمجي فهو يتزوج الكثيرات ، ولكنه لن يأخذ قرينة من جاره إلا عوقب عليها ! »

ويصف التمساح في جموده والتزامه مكاناً واحداً يطيل الجلوس فيه ، ثم يقول : « كأنه عضو في نادي محافظين ! »

ويقول عن القبائل العراة الذين عاشوا في سعادة الفطرة حتى عرفت الحضارة طريقهم في القارة السوداء : « ان الانسان انما يفقد البساطة ويتعلم الخطيئة بمعرفة الذهب لا بمعرفة المرأة ».. ويشير الى جمع البردي ، فيقول : « ان عبيداً يجمعونه ويصنعونه ، وان عبيداً آخرين يسطرون فيه الثناء الكاذب على الفراعين » . وهكذا في جميع فصول الكتاب مما يتخلل السطور أحيانا ، وإن كان لا يبرز هذا البروز

***

قال لدفج انه تعود أن يكتب حياة العظماء كأنها أنهار تفيض من النبع الى النهاية ، وهو يريد أن يكتب حياة النيل كأنه انسان يتقدم من مولده الى أقصى مداه ، وقد ذكر في المقدمة : « انه لا ينوي أن يصف ما هو مشهور بالأسماء والعناوين ، وانما يأخذ نفسه بأن ينقش الالوان ثم يفرغ عليها الاسم والعنوان »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد بر بوعده هذا أيضاً كأحسن ما عهدناه فى ترجمة من تراجمه الكثيرة . فترددت فى ثنايا أوصافه المختلفة صور كلامية بديعة أو كلمات وجيزة كأنها ضرب من التصوير . فاذا أشار الى نبات الحليبة كيف ينبثق قال : «انه يعلو و ينبثق كأنه احتجاج من الارض الى السماء» . واذا مثل لك كثافة الغابات ، قال : « إن الانسان لايعرف مدى طولها الا ببعد ما يرد على سمعه من أغانى طيورها » واذا وصف التمساح فى تخوم الحبشة وهو يفيق من ركوده فى الغدران المهجورة حين يمدها الفيضان بذخائر الحياة والغذاء ، قال : « إنه يخرج من حلم طويل كان يحلم فيه بالقحط والمجاعة ! »

وليس بالنادر أن نعبر هذه الكلمات الوصافة من هذا القبيل حيث « ينقش » الكاتب مناظر الماء أو مناظر النبات أو مناظر الطير والحيوان أو مناظر الناس وهم قبائل شتى يختلفون فى عادات الحكم وعادات الاجتماع وعادات الزواج كما يختلفون في العقائد والملامح والاجسام

ولم ينس الكاتب مع هذا أن يحيط بما يحتاج اليه قراء الرحلات من الظواهر الطبيعية وأسبابها ومواعيدها ، وما له ارتباط وثيق بالتربة والتاريخ ومسائل الرى وحوادث العصور وفروض المؤرخين والباحثين . ففى الكتاب كلام عن ستانلى و بيكر وامين باشا والمهدى وغردون والزبير وكتشنر ومارشان وأمراء سنار وملوك الحبشة الاقدمين والمعاصرين ، وفيه كلام نافع عن مناخ الأقاليم النيلية ومواسم أمطارها وعوامل النقص والزيادة فيها ، و روافد النيل وما جرى فيها أو جرى عليها من عمل الطبيعة أو عمل الانسان ، وعن امراء مصر والحبشة وما كان بينهما من شقاق وتهديد بحبس الفيضان وتحويل الماء ، وفيه معلومات شتى لم تجتمع قط فى كتاب واحد عن النيل أو أقاليم النيل

والكتاب على اتساعه وتعدد فصوله وأبوابه قليل الاخطاء أو مغتفر الاخطاء من كاتب أوربي يتصدى لهذه الموضوعات : فمن أمثلة الخطأ فيه أن يفسر اسم المهدي بأنه القائد أو المرشد ، وهو كما يعلم القراء غير الهادى فى معنى لفظه ، وان كان هو الهادى فى معنى دعوته وارشاده ، ومن أمثلة هذا الخطأ زعمه ان القرآن قد أنبأ بالأئمة الاثنى عشر ، وهو من كلام بعض الفرق الاسلامية ولا شأن له بآيات القرآن ، ومن تلك الأمثلة قوله عن « محمد احمد » انه أوصى بأربعة من الخلفاء بعده كما فعل النبى عليه السلام ، والنبى كما هو معلوم فى التاريخ الاسلامى لم يوص بأحد من الخلفاء . . . وكل أولئك خطأ منظور من الاوربى الذى يتناول هذه الأمور فى عرض رحلة عامة ليس هذا البحث فيها هو المبحث المقصود

الا أن القارىء لا يفوته أن يلاحظ على الكتاب فى جملته أنه أرضى المغيرين على الأقاليم النيلية أكثر من ارضائه أبناء تلك الأقاليم . فما أثبته عن تاريخ الحبشة يسر الايطاليين ولا يسر أبناء البلاد ، وكذلك ما أثبته عن المحتلين فى مصر والسودان يسر الانجليز وليس فيه الكثير من دواعي السرور للسودانيين والمصريين

بيد اننا ننصفه فلا ننسى أنه يحصى على المستعمرين ما يستغلونه من البلاد الافريقية ، فيشير الى أن الانجليز قد جندوا من « أوغنده » مائتى ألف جندى فى ابان الحرب العظمى وانهم ينتفعون من محصولاتها بما يساوي مليونين من الجنيهات ، وان موارد أوغنده تزيد على نفقاتها بنحو مليون

كذلك ننصفه فلا ننسى أنه ألقى التبعة على الوزارة الانجليزية فيما أصاب غردون بالخرطوم ، وقرر أن الجنود التى سافرت لنجدته كانت تدركه وتنقذه لو تحركت فى شهر مايو ولم تتوان الى ما بعد ذلك بثلاثة أشهر

ومن الجائز أن الرجل لم يكلف نفسه الحماسة لحقوق المستضعفين ، لأنه وصل الى تلك السكينة التى علمته أن الغيرة على الحق من أغرب المستغربات بين بنى الانسان ، ولأنه سئم ما يقال عن الأجناس وفضائل هذا القبيل ومطاعن ذلك القبيل ، ولم يمض فى كتابة المقدمة عشر صفحات حتى بان أثر ذلك فيما كتب عن سخافات الأجناس ودعاوى المفرقين بينها باسم العلم والسياسة ، وحق له أن يسأم هذه البدعة ولا يسهو عنها وهو اليهودى الذى جنت عليه التفرقة فى وطنه الألمانى بين من يسمونهم بالآريين ومن يسمونهم بالساميين !

عباس محمود العقاد

رسم رمزى للنيل وفروعه عن تمثال بالفاتيكان